رئيف خوري مفكراً أديباً

بقلم الدكتور ميشال عاصي

منذ أن غاب رئيف عن العين غيبة الابد ، وصورته مفكرا وناقدا وكاتبا مبدعا ... تزداد في النفس ألقا . لكأنما حضوره على البعد هو الشاهد ، في ملحمة الصراع بين الموت والحياة ، على انتصار الانسان في النهاية بسلاح الفن والفكر ، وهو الدليل أيضا على ان رئيفا باق بيننا بقاء أدبه وفكره .

ولعلني ـ وأنا واحد ممن أحبوا رئيفا الانسان والكلمة معا ، ويعيشون بعد رحيله أجواء حضوره الادبي غالية حميمة ملونة بألوان الاغراض التي جال فيها قلمه ـ اكثر ما أكون صدقا مع نفسي ، ووفاء لذكراه ، اذ أعترف بأن أبرز حضور لرئيف خوري هو ، عندي ، في اطار المهنة التي آمارس ، حضور المعلم ، والمفكر الادبي . فلكم نحن ، أبناء هذا الجيل من المعلمين وأهل الفكر الادبي في لبنان خاصة ، مدينون له معلما طليعيا وباحثا نظريا بكثير من مفاهيمنا الراهنة للفن والادب والحياة ، ولكم نحن مدينون لقلمه في هذا المجال الرحب العسير بكثير من شعل الضوء التي تنير سبلنا في كل يوم .

لرئيف آراء نظرية في الادب متفرقة هنا وهناك في مقالاته ، وأحاديثه ، ونقده ، وبعضها مجموع في مؤلفات وأبحاث ، وهي على العموم من السعة والغنى والتجديد بحيث يصح أن تؤخذ أساسا للفكر الادبي الملتزم ، ومنطلقا للابداع الانضوائي في المرحلة الاولى من حياة الانضوائية في لبنان وسواه من البلدان العربية .

وقبل أن نحاول الغوص على نظراته التفصيلية وهي جديرة بالتتبع والتفييم في هذا الظرف ، وتستحق عناية خاصة ودراسة مسهبة مستقلة ، يحسن بنا الان ان نلم بالمفهوم العام الذي استند اليه رئيف كقاعدة لعمله الادبي ولرؤياه النظرية الشاملة في الفن والادب .

لقد رفض رئيف بشدة وعنف نظرية « الفن للفن » ، تلك التي نرى الى الصنيع الفني مجرد صياغة تعبيرية لا يتعدى تأثيرها حدود الاحساس الجمالي بالشكل دونما التفات الى جوهره الانساني . وكان من حيث رحابة التجربة والعمق في طليعة من آمنوا بانضوائية الفن ودعوا الى انفتاحه على الحياة والتزام القضايا المصيرية الكبرى على اختلافها في كل عصر .

وايمان رئيف بانضوائية الفن والادب ، ورفضه جميع المفاهيم والاصول المغايرة لها نظرا وتطبيقا يرتكزان عنده الى أصول الفلسفة الماركسية التي سار على هديها في مختلف نشاطاته القلمية ونضاله السياسي والاجتماعي .

وفحوى الانضوائية من وجهة مفهومه الماركسي ظاهر في جميع ما كتب وناقش حول هذا الموضوع لا سيما في المناظرة الشهيرة التي قامت بينه وبين طه حسين في قصر الاونيسكو ببيروت ربيع عام ١٩٥٥ بدعوة من هيئة المحاضرات في كلية المقاصد الاسلامية ، وقد نشرت « الاداب » نصها الكامل يومئذ . وخلاصة ما جاء على لسانه في هذا الصدد : « ان الادب انفتاح على الحياة المتحركة المتجددة أبدا . تتجدد بأن يموت فيها ما هرم ونفسخ وانحل ، وبأن يثبت فيها ما ولد وأقبل على القوة والشباب . فالاديب بالتالي لا ينقل نسخة عن العالم الواقعي ، وليس هو محض وصاف لما يعرض عليه الواقع من شكول ونماذج ، أو محض وصاف للالفاظ ، وانما هو يميز في ما يصف ويصور ، ظواهر الحياة التي تنمو من ظواهرها التي تذبل وتضمحل ، لا يقصد من وراء ذلك الى لذة وترفيه أو عزاء وانتشاء ، أو مباهاة ببيان ، وانما يقصد الى أن يدخل في وعي الجماهير أي هي الظواهر النامية في الحياة حولهم وأي هي الظواهر الصائرة الى ذبول واضمحلال ، بغية ان يوجههم الى تغيير الحياة التغيير الذي تتحمله» وهكذا فان الادب والفن في نظره « فعل خلق فردي ولكن بمادة اجتماعية لا ميتافيزيقية ، مادة تنبع من الحياة الشعبية المتحركة المتجددة لتجعلها أعمق وعيا في تحركها وتجددها » .

فانطلاقا من هذا المفهوم العام تبرز في التفكير الادبي عند رئيف أهمية ارتباط الادب بالجماهير الشعبية من حيث ان الادب يستقي من حيانها ويختار مواضيع عمله وعناصره ، ومن حيث أن الجماهير هي التي تتجسد فيها الافكار والصور والموحيات فتتحول هذه ، بفضل تجسدها في الجماهير ، من طاقات فنية جمالية « لا تؤثر اثرا بنفسها » ، كما يقول ، الى طاقات فعلية بها تتحرك الحياة عندئذ وينطور التاريخ .

ومن هنا ، انطلاقا من هذا المفهوم أيضا ، كان يرى ان الاديب أو الفنان حتى يضطلع بمسؤولية عمله ، ويعي أبعاده ومنطلقاته عبر حركة الحياة في مدها النامي وجزرها المتقهقر يجب أن يكون ذا نظرة واعية على كثير من الاتساع والشمول الى الكون والمجتمع ، « ان يكون بارادة واعية منه فيلسوفا ، ولا سيما اجتماعيا » ، على حد تعبيره ، « يصدر عن فلسفة ، يدرك بها ان الحياة متحركة متجددة ... ويدرك اتجاه الحياة في حركتها وتجددها ، ويدرك ان ينبوع القوة في هذه الحركة والتجدد انما هو الشعب » .

وعلى هذا الاساس من النظرة الشاملة الى الفن والحياة يتضح لنا ايضا ان الفن في نظره ليس انعكاسا للحياة فقط ، ولا هو عامل موجه لها فحسب ، بل هو الاثنان معا في حركة جدلية مطردة من كلا الجانبين .

هذه الجدلية المطردة بين الفن والحياة تستتبع حتما من جانب الفن العظيم اهتماما عظيما بالقضايا الاساسية في كل عصر . وبعدما حدد منطلق الفن وغايته ودوره في الحياة أخذا وعطاء عمد الى تحديد قضايا الحياة في عصرنا الحاضر فاذا هي : « قضايا الاستقلال الوطني، والحرية الديمقراطية ، والعدالة الاجتماعية ، والسلم بين الشعوب » ، وهي أبرز ما يجب على الفن أن يستلهمها ، وأن يسهم بالتالي في انماء حركتها الصاعدة والعمل من اجل القضاء على ما هو صائر منها الى الزوال والاضمحلال .

ولعل هذه اللوحة الموجزة عن النظرة الاساسية للفن والادب عند رئيف خوري لا تكتمل خطوطها البارزة ان لم نورد خلاصة رأيه في جمالية الشكل والتعبير . فكثيرا ما تهيأ لاخصام الانضوائية أن يتهموا أصحابها باغفال العنصر الفني في الاداء ، وهو عماد نظرة أهل « الفن للفن » ومنطلقها وغايتها الاولى والاخيرة عندهم . والحق ان رئيفا قد أعار هذه المسألة جانبا كبيرا من الاهتمام ، ووقف منها الموقف الصريح الحاسم اذ شدد على « ان الادب ليس هو شكله فقط » كما انه ليس مضمونه فحسب « بل شكله ومضمونه متحدين متوافقين » . ولم يكن له بد من أن يقف هذا الموقف ، فهو من ناحية ابن الجدلية الماركسية ، وهو من ناحية أخرى وريث الجمالية العربية واهتمامها المأثور بالشكل ، وهو الى ذلك الاديب المبدع ، والفنان

. . . . . ←

رئيف خوري : كاتباً سياسياً واجتماعياً

بقلم الدكتور ميشال سليمان

صاحب الكلمة المدرسة ، رئيف خوري ، كلما انطرحت على بساط البحث مشكلة سياسية ، أو معضلة اجتماعية ، مما يتعلق بلبنان والعرب والعالم أجمع ، طلع اسمه كأنصع ما يكون الالق النافذ في مطاوي الدياجير ، متسربلا بالحكمة ، رافلا بأبراد الادراك النير والرأي البصير .

ولا بدع ، فرئيف خوري ، الاديب الموسوعي ، أفنى عمره القصير في معترك الحياة الصخاب ، خائضا غمار الملمات الاجتماعية . ولم يطف على السطح ، ولم يداج ، ولم يوارب ، ولم تفعل فيه سوءة الانتهازية ، شأن الكثرة الكاثرة ممن يتعاطون السياسة على أنها لعبة تلعب ، ومطية الى أغراض قد تتعدى الآنية الى موعد قابل مع الحياة مما يسمونه بالتكتيك .

فالاديب الحر ، والمفكر الانساني الثائر الرائد ، الذي هو رئيف خوري ، نزه نفسه منذ البدء عن الدرج في مهامه العفوية ، ومتاهات الغيبية ، ومفاوز الارتجال . ونفض عن كاهل فكره ما يؤدي به ، في مواقف وآحايين ، شأن الكثيرين ، الى وجوب التفكير بعقل غيره ، أو استيراد الحلول الجاهزة ، لكيلا يجشم نفسه مشقة الكدح المجد ، في سبيل الوصول الى فك الارصاد ، واستخلاص المنهج المبتغى والواجب الاتباع ، من خلال تناقضات الواقع ، عبر عملية التوفيق بينها وبين ما يرتجيه .

ومن هذه الزاوية بالذات ، كان رئيف خوري بحق حامل هم اجتماعي كبير ، في كل ما دبجته يراعته من بحوث وخطب وقصائد وكتب ، تنتظم جميعا هم الانسان في أن يسعد ويعيش ، ويملك زمام مصيره بكلتا يديه ... همه في أن يعبر عن خلجات قلبه بحرية تامة ، وان أغضب قوله السلطان ، أصيلا كان أم دخيلا ... همه أن يتمرد ويثور ، ساعة يجد ان التمرد والثورة شرطان من شروط بقائه ، واستمرار بقائه ، وان عقدت الهيئة الاجتماعية التي ينضوي اليها ، حبل حياته بسيف حرمانه ونطع جبروتها .

ومن جراء هذه المسؤولية التي ألزم بها نفسه ، كانت تلكم المواقف الارادية التي وقفها رئيف خوري من الانسان ، ومن قضاياه الوجودية ، مدافعا عن القيم ، عن خزانها الاعظم : الشعب ، تحدوه الارادة الايجابية للحياة المتحركة المتطورة ، المتقدمة ، برغم جميع الذين يعيشون على هوامشها ، ويخلقون القرف من وجوب التمتع بجمالاتها وخيراتها .

ولهذا ، عمد رئيف خوري في مواقفه السياسية والاجتماعية الى عدم تجريد الانسان من علاقاته ، زمانا ومكانا ، والى عدم تجريد التاريخ ، بالتالي ، من مقوماته ، ونكران قوانينه ، لكي لا يشوه أفكار الناس وأعمالهم . ثم أجهد فكره لكي يثبت ان للحياة قوانينها الاجتماعية العامة أيضا ، تلك التي تقلبت فارتفعت بها من طور الى أطوار ، حتى بدت كأنها تطور تدريجي لقيمة وحرية الانسان ، كارتقاء نحو نظام اجتماعي يجعل منه كائنا منسجما مع انسانيته . كما انه ، بالتالي ، عمل لكي يثبت أيضا ان هذه القوانين ، لا يمكن أن تفعل فعلها الواعي بغير انصبابها في المجرى الذي يحفره لها الناس . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير في قصته القصيرة « القرية » ، تلك التي روى فيها قصة جماعة تتعاون لتدحرج الصخور ، وتشق الطرق ليعبر العابرون الى حيث تقودهم أساليب ارتزاقهم اليومية المعطاء .

ومن خلال هذا الادراك العميق للعلاقات الاجتماعية ، والنابع من تجربة ذاتية ، ومن الرغبة في وجوب جعلها تولد هيئة عامة مسؤولة ، يصبح فيها التطور الحر لكل فرد شرطا لحرية تطور المجموع ، كان علم السياسة ، أو « سياسة الاجتماع » على حد تعبير رئيف خوري ، وقد شاءها ادراكا ، وفكرا ، ونهجا ، مستندة جميعا الى واقع ، وغير منفصلة عن العمل والنشاط الاجتماعي العام . فهو يقول في دراسة له بعنوان « بين سياسة الواقع ، وسياسة المبدأ » : « ان كل سياسة لا تستند الى فهم الواقع واعارته الاهتمام الضروري ، هي سياسة قاصرة أو خائبة . لكننا قلنا : فهم الواقع ، ولم نقل الواقع فقط . وفهم الواقع معناه بالدرجة الاولى أن نفهم هذا الواقع ليس أزليا ولا أبديا ، ولكنه خاضع للتحول والتغير . فمن فهم الواقع مثلا أن نأخذ بعين الاعتبار ان الاستعمار موجود . لكن من فهم الواقع أيضا أن ندرك

المنبصر الذي أدرك بوعي كلي « ان الفن انما هو بالنتيجة صور وأفكار تؤدى في رونق وجمال » وان الطاقة المهمة في الفن ليست كامنة في المحتوى وحده ، ولا في الشكل وحده ، بل في كليهما معا . ولقد أوصى في « الدراسة الادبية » (ص ١٤) « بتوفية كل عنصر حقه من العناية مع الملاءمة بينهما » .

هذا ولرئيف في مجال الفكر الادبي اراء تفصيلية قيمة يضيق بنا المقام عن اثباتها ، تطرق فيها باسهاب الى البحث في عناصر المبنى ومادته وقوالبها وطرق الاداء ، وفي الانواع الادبية والمواضيع والاساليب ، وفي التاريخ الادبي والدراسة والنقد ، وفي الجمالية أحيانا . لم يفته فيها جميعا التماسك والانسجام مع فكرة عامة ، ومع نظرته الاساسية الى الفن والادب ، وهي غنية دائما بضروب من الاستشراف والاجتهاد في مسائل كثيرة يحوجنا فيها النظر وتعوزنا الاصول والمفاهيم . ومن هنا كان رئيف يطل علينا في جميع مراحل حياته مفكرا أدبيا من طراز حديث خاص ، ملأ جزءا كبيرا من فراغ لا يزال الفكر النظري في الادب والفن يعاني منه حتى اليوم لربط ما انقطع بين تراثنا الاكاديمي الجمالي وبين الحياة الفنية الابداعية المتطورة . ولقد لعب رئيف ههنا في هذا الميدان دورا بارزا جدا اذ جهد في استخلاص النظريات الجديدة وصوغها مفاهيم يستلحق بها الفكر الادبي عندنا ما فاته من مواكبة مد الحياة الادبية والفنية في لبنان وفي مختلف البلدان العربية والعالم .

ولئن فات رئيفا أن يبني في الجمالية العربية بناء شاهقا ، وهو أمر مستحيل في مرحلة نفتقر فيها الى أولى المعطيات المبدئية والمادية لهذا اللون من التفكير الفلسفي الشامل ، فلم يفته أن يكون طليعة من جاهدوا بدأب ، وجرأة ، ووعي ، في سبيل تنقية الفكر الادبي من المفاهيم الجامدة ، واغنائه بالاصول النظرية ليماشي ركب حياتنا الفنية ويفاعلها اخذا وعطاء فتعلو فوقها الشوامخ ، ولرئيف في كليهما ، في النظر الادبي وفي الابداع ، أعلى المشارف وأبهى السمات وأطيب الذكر .

ميشال عاصي